مصطلح التوهم في كتاب سيبويه

د. محمد عبد الوهاب شحاته

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة قطر

مصطلح التوهم في كتاب سيبويه

د . محمد عبد الوهاب شحاتة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة قطر

أ - التوهم لغة واصطلاحاً :

حظي كتاب سيبويه باهتمام القدماء والمحدثين ، ونال إعجابهم وتقديرهم في شتى مناحي البحث اللغوي ، فلا يجهل أحد قيمة الكتاب وأثره في الدرس اللغوي بجميع مستوياته ، إذ يرده من أراد دراسة العربية ومعرفة أسرارها . إنه كتاب ثري بقضاياه ومسائله ومصطلحاته ، لاسيما الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ، ومن ثم لا غرو أن نعتوه بنعوت قلّما نعت بها مؤلّف آخر .

ويعمد هذا البحث إلى دراسة مصطلح " التوهم " في كتاب سيبويه موضحاً ما يلي :

- دلالته في اللغة والاصطلاح مع الإشارة إلى المصطلحات الأخرى التي يمكن أن تتوافق معه .
- التركيز على القضايا أو المسائل الصرفية والنحوية التي تُوهِّم فيها ، وإبراز الباعث على حدوث مثل هذا التوهم .

ودراسة مثل هذا المصطلح تبين إلى أي حد كان النحاة العرب يجتهدون في تفسير كل مسألة من مسائل اللغة ، وهو ما يعني الحرص على فهم كافة هذه المسائل والاقتناع بها .

ولسوف يتضح لنا ذلك كله بشيء من التفصيل في الصفحات التالية .

الـــتوهم Fancy مصدر للفعل " توهَّم " المزيد بالتاء وتضعيف العين ، وهو في اللغة تخـــيل الشيء وتمثله ، يقال : " توهَّم الشيء : تخيّله وتمثله ، كان في الوجود أو لم يكن ، قال زهير في معنى التوهم :

وَقفْتُ بِهَا من بعدِ عشرينَ حجّةً فلأيـــاً عَرَفْـــتُ الدّارَ بعْدَ توهُّم[١]

وقال رقيبة الجرمي ، من طيئ :

أحَقـــاً عـــبادَ الله أنْ لسْتُ رائياً رَفاعَـــةَ طـــولَ الدهر إلا توهُّما[٢]

أي تمثّلاً وتخيلاً :

وتوهمت الشيء وتفرسته وتوسمته وتبينته بمعنى واحد[٣] . قال النابغة :

تَوهَّمْـــتُ آيـــاتٍ لهـــا فعرفتُها لســـتّةِ أعـــوامٍ وذا العام سابُع[٤]

وتوهمت ، أي : ظننت[٥] .

ويشـــير مؤلف " الصاحبي " إلى أن التوهم من ســـنن العرب ، في قوله : (من سنن العرب التوهم والإيهام ، وهو أن يتوهم أحدهم شيئاً ثم يجعل ذلك كالحق . منه قولهم : وقفت بالربع أسأله ، وهو أكمل عقلاً من أن يسأل رسماً ، يعلم أنه لا يسمع ولا يعقل ، لكنه تفجع لما رأى السّـــكْنَ (الســـكان) ، قد رحلوا ، وتوهم أنه يسأل الربع أين انتووا ، وذلك كثير في أشعارهم)[٦] .

والتوهم في الاصطلاح هـــو : (إدراك المعنى الجزئي المتعلق بالمحسوســـات)[٧] . وهو " قسم من الإدراك "[٨] ، أو " هو تركيب الصور بالمخيلة ، والمفهوم يعني تارة القدرة على هذا التركيب ، وتارة نتيجة ما تصنعه هذه القدرة "[٩] ، وتوهّم اللبس يكون عند رجحان البعض ، ورفعه مختار)[١٠] .

ويفـــرق كولردج بيـــن التوهم والخيال ، (فالخيال إما أولياً أو ثانوياً ، والأولى هو القوة الحيوية أو الأولية التي تجعل الإدراك الإنساني ممكناً ، وهو تكرار في العقل المتناهي لعملية الخلق الخالدة في الأنا المطلق . أما الخيال الثانوي فهو صدى للخيال الأولى ، غير أنه يوجد مع الإرادة الواعـــية ، وهو يشبه الخيال الأولي في نوع الوظيفة التي يؤديها ، ولكنه يختلف عنه في الدرجة وفي طريقة نشاطه .

أما التوهم فهو على النقيض من ذلك لأن ميدانه محدود وثابت وهو ليس إلا ضرباً من الذاكـــرة تحرر من قيود الزمان والمكان ، وامتزج وتشكل بالظاهرة التجريبية للإرادة التي تعبر عنها بلفظة الاختيار . ويشبه التوهم الذاكرة في أنه يتعين عليه أن يحصل على مادته كلها جاهزة وفق قانون تداعي المعاني)[١١] .

فالـــتوهم وفـــق ما سبق وفي ضوء مطالعة مواضعه في كتاب سيبويه الذي لم نجد فيه تعـــريفاً له هو تمثل أو تخيل وجود عنصر صوتي أو صرفي في بنية الكلمة أو الجملة يقتضي نطقاً معيـــناً ، ويجري الكلام عليه ، وقد يكون الأمر على خلو المركب الصرفي أو النحوي من هذا العنصر أو ذاك .

وقد أوضح ابن هشام ذلك بقوله : (وقع في كلامهم أبلغ من تنـــزيلهم لفظاً موجوداً مـــنـــزلة لفـــظ آخر ، لكونه بمعناه ، وهو تنـــزيلهم اللفظ المعدوم الصالح للوجود بمنـــزلة الموجود ، كما في قوله :

بَدا لِيَ أنّي لستُ مدركَ مَا مَضى ولا ســـابقٍ شيئاً إذا كان جائيا[١٢]

على تقدير حرف الجر الباء في خبر ليس .

وللـــتوهم شـــرط لجوازه ، وآخر لحسنه ، وشرط جوازه صحة دخول ذلك العامل المتوهّم ، وشرط حسنه كثرة دخوله هناك ، ولهذا حسن قول زهير :

بدا لِيَ أني لستُ مدركَ ما مضى ولا ســـابقٍ شـــيئاً إذا كان جائيا

وقول الآخر :

ما الحازمُ الشّهمُ مقداماً ولا بطلٍ إن لم يكـــن لـــلهوى بالحق غلابا

ولم يحسن قول الآخر :

ومـــا كنـــت ذا نـــيرب فيهم ولا مُـــنْمشٍ فـــيهم مـــنْمِلِ

لقلة دخول الباء على خبر كان ، بخلاف خبري ليس وما) [١٣] .

وكان سيبويه يستخدم أحياناً مصطلح " الغلط " [١٤] في مواضع " التوهم " أحياناً ، في قولـــه : (واعلم أن ناساً من العرب يغلطون فيقولون : إنهم أجمعون ذاهبون ، وإنك وزيد ذاهـــبان ، وذاك أن معناه معنى الابتداء ، فيرى أنه قال : هم ، كما قال : ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً) [١٥] .

ويعلق ابن هشام على ذلك بقوله : (ومراده بالغلط ما عبّر عنه غيره بالتوهم ، وذلك ظاهر في كلامه ، ويوضحه إنشاده البيت ، وتوهم ابن مالك أنه أراد بالغلط الخطـــأ ، فاعترض عليه بأنا متى جوزّنا ذلك عليهم زالت الثقة بكلامهم ، وامتنع أن تثبت شـــيئاً نادراً لإمكان أن يقال في كل نادر : إن قائله غلط) [١٦] .

كما كان يستخدم في بعض الأحيان مصطلح " النية " [١٧] بما يشعر بدلالة التوهم . وقـــد لوحظ أن مصطلح التوهم أكثر المصطلحات استخداماً ، إذ تردد في مواضع متعددة من أبواب الصرف والنحو .

ب - القضايا أو المسائل الصرفية والنحوية التي تُوهِّم فيها :

ثمة بعض القضايا الصرفية والنحوية التي توهم فيها ، وفسرت الكلمة والجملة تفسيراً ينبعث من توهم شيء موجود أو غير موجود . ولسوف نعرض لهذه المسائل بشيء من التفصيل على النحول التالي :

١- الصرف :

تمثلت القضايا أو المسائل الصرفية التي توهم فيها فيما يلي :

(١) بعض الأبنية المعتلة :

أشار سيبويه إلى حدوث " التوهم " في بعض الأبنية المعتلة ، بقوله : (قد جاءت حروف على الأصل غير معتلة مما أسكن ما قبله .. شبهوه بفاعلت إذ كان ما قبله ساكناً ، كما يسكن ما قبل واو فاعلت. وليس هذا بمطرد ، كما أن يدل التاء في باب أولجت ليس بمطرد، وذلك نحو قولهم : أجْودتُ ، وأطولتُ ، واستحوذَ ، واسْتروَحَ ، وأطْيَبَ ، وأخْيَلتْ ، وأغْيَلَتْ وأغْيَمتْ ، واستغْيَلَ ، فكل هذا فيه اللغة المطردة ، إلا أنّا لم نسمعهم قالوا إلا استروح إليه ، وأغْيَلتْ واستحوذ ، بينوا في هذه الأحرف كما بينوا في فاعلت، فجعلوها بمنزلتها في أنها لا تتغير، كما جعلوها بمنزلتها حيث أحيوها فيما تعتل فيه نحو: اجتوروا ، إذ توهموا تفاعلوا)[١٨].

ويفهم من ذلك أن صحة حرف العلة سببه توهم صيغة أخرى ، فإذا قيل : استروح توهم وزن " فاعل " ، إذ تصح فيه الواو ، وعند بناء الاستراوح ، يقال راوح ، ويكون " استروح " في معنى " راوح " صحت الأولى مثل الثانية .

ومثل هذا موجود في وزن " افتعل " و " تفاعل " ، قال سيبويه : (وأما قولهم : اجتوروا ، واعتونوا ، وازدوجوا ، واعتوروا ، فزعم الخليل أنها إنما تثبت لأن هذه الأحرف في معنى تفاعلوا ، ألا ترى أنك تقول : تعاونوا ، وتجاوروا ، وتزاوجوا ، أثبتوا الواو ، كما قالوا عَورَ ، إذ كان في معنى فعْل يصح على الأصل ، وكذلك : احتوشوا واهتوشوا ، وإن لم يقولوا تفاعلوا فيستعملوه ، لأنه قد يشرك في هذا المعنى ما يصح) [١٩]. والحاصل أنه لما كانت الصيغة الأولى في معنى ما تصح فيه ، ولا تعل ، صحت الواو كذلك فيما حمل عليها .

(٢) التصغير :

للاسم أحوال عند تصغيره ، فهناك ما يعرف أصل حرف العلة فيه إذا صغر ، وهناك مـــا لا يعرف له أصل ، من ذلك مثلاً كلمة " ناب " ، قال سيبويه : (وإن جاء اسم نحـــو الناب ، لا تدري أمن الياء هو أم من الواو ، فاحمله عـــلى الواو حتى يتبين لك أنها من الياء ، لأنها مبدلة من الواو أكثر ، فاحمله على الأكثـــر حتى يتبين لك ، ومن العـــرب من يقول في ناب " نويب " فيجئ بالواو ، لأن هذه الألف مبدلة من الواو أكثر ، وهو غلط منهم) [٢٠] .

ومعـــرفة أصل حرف العلة في الاسم والفعل طرقها متنوعة ، فالمضارع والمصدر العام والإســـناد إلى الضمائر وسائل لمعرفة أصل حرف العلة في الأفعال المعتلة . والتصغير والتثنية والجمع والنسب وسائل لمعرفة أصل حرف العلة في الأسماء المعتلة .

وأصل الألف له ثلاثة أنواع : نوع أصله الواو ، مثل : باب : بويب ، ومال : مويل ، قـــال : يقول . ونوع أصله الياء ، مثل : ناب : نييب ، والجمـــع أنياب ، ونوع لا يعـــرف له أصـــل ، فـــيحمل على الواو ، مثل : عاج : عويج ، وصاج : صويج ، وصاب : صويب ، ونحو ذلك [٢١] .

(٣) الوقـــف :

يدرس الوقف ضمن الفواصل الصوتية ذات الأثر في الموقع النحوي ، وهو كما عرفه الأشموني : (قطع النطق عند آخر الكلمة) [٢٢] .

وفـــيما يـــتعلق بهذا المصطلح فقد استخدم الفعل الماضي " تـــوهم " عند سيبويه في قوله : (وزعم أبو الخطاب أن ناساً من العرب يقولون : ادعه من دَعَوْت، فيكسرون العـــين، كأنهـــا لما كانت في موضع الجزم توهموا أنها ساكنة ، إذ كانت آخر شيء في الكلمة في موضع الجزم، فكسروا حيث كانت الدال ساكنة، لأنه لا يلتقي ساكنان ، كما قالوا : ردّ يا فتى) [٢٣] .

والفعـــل " ادع " مـــن الفعـــل دعا يدعو ، وعند الوقف عليه يكون " ادعه " بهاء الســـكت ، وهو أمر مبني على حذف الواو ، وكسر العين ، على توهم أنها ساكنة ، فهي آخر الكلمة ، وهي موضع البناء ، والدال ساكنة قبلها ، والكســـر تخلصاً من التقاء ساكنين ، ومثله في ذلك مثل الأمر من المضعّف ، كـــ : شدّ ، إذ كسروا حتى لا يلتقي ساكنان .

وقـــد علـــق سيبويه على ذلك بقوله : (وهذه لغة رديئة ، وإنما هو غلط ، كما قال زهير :

بدا لي أن لست مدرك ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائيا)[٢٤]

(٤) التكســـير :

يمـــثل التكسير أحد أنواع الجموع في العربية ، وقد استخدم الفعل " توهم " في قول ســـيبويه : (فأما قولهم مصائب فإنه غلط منهم ، وذلك أنهم توهموا أن مصيبة فَعيلة ، وإنمـــا مُفْعِلة ، وقد قالوا : مصاوب)[٢٥] ، فقوله " توهموا " أي تصوروا أو قدّروا خطأ ، والتوهم هنا التصور الخاطئ .

فالألف تقلب همزة إذا وقعت بعد ألف فعائل في الجمع ، شريطة أن تكون مداً زائداً في المفـــرد ، مـــثل : صحيفة ، رذيلة ، كتيبة ، بوزن " فعيلة " ، وجمعها " فعائل " : صحائف ، رذائل ، كتائب .

وكـــلمة مصيبة وزنها " مُفْعِلَة " وأصلها مُصْيِبة ، والحاصل أن كسرة الياء تقلب إلى الساكن الصحيح قبلها ، والياء أصل في الكلمة ، والأولى أن تصـــح ولا تعل ، وما يسّـــر قلبها شـــبه الأصـــل بالزائد ، قال سيبويه : (وقالوا : مصيبة ومصائب ، فهمزوها وشبهوها حيث سكنت بصحيفة وصحائف)[٢٦] .

ومـــا يـــتعلق بهـــذا الجمـــع ما ورد في باب تكسير ما عدة حروفه أربعة أحرف للجمع[٢٧] ، في قوله : (وقالوا : ظريفة ، وتوهموا الصفة حيث أنثوا)[٢٨] .

٢- النحو:

أما القضايا النحوية التي تردد فيها مصطلح التوهم فهي على النحو التالي..

(١) إعراب الفعل :

لا يعرب من الأفعال إلا المضارع الذي خلا من نون النسوة ونون التوكيد ، والعامل في إعرابه لفظي في حالتي النصب والجزم ، ومعنوي في حالة الرفع ، وربما يكون اللفظي ظاهراً ومقدراً .

وقد شبه سيبويه نصب ما بعد الواو في مثل : كيف أنت وزيداً في قوله : (وزعموا أن أناساً يقولون : كيف أنت وزيداً ، وما أنت وزيداً ، وهو قليل في كلام العرب ، ولم يحملوا الكلام على (ما) ولا (كيف) ولكنهم حملوه على الفعل ، على شيء لو ظهر حتى يلفظوا به ، لم ينقض ما أرادوا من المعنى حين حملوا الكلام على (ما) و (كيف) ، كأنه قال : كيف تكون أنت وقصعة من ثريد ، وما كنت وزيداً ، لأن كنت وتكون يقعان هاهنا كثيراً ولا ينقصان ما تريد من معنى الحديث ، فمضى صدر الكلام وكأنه قد تكلم بها ، وإن كان لم يلفظ بها ، لوقوعها ههنا كثيراً) [٢٩] .

شبهه سيبويه بـ (ولا سابقٍ شيئاً) في قول صرمة الأنصاري :

بدا لِيَ أني لستُ مدركَ ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائيا

فجعلوا الكلام على شيء يقع هنا كثيراً .

ومثله قول الأحوص :

مَشائيمُ ليسوا مُصلحينَ عَشيرةً ولا ناعبٍ إلا ببين غُرابُها

فحملوه على ليسوا بمصلحين ، ولست بمدركٍ .

ومثله لعامر بن جوين الطائي :

فلم أرَ مثلها خُباسةَ واحدٍ ونَهْنَهْتُ نفسي بعد ما كدتُ أفْعَلهْ

فحملوه على أن ، لأن الشعراء قد يستعملون أن ههنا مضطرين كثيراً [٣٠] .

والمعروف أن كاد من أفعال المقاربة لا يقترن خبره بأن كثيراً ، ونصب الفعل الواقع بعد (كدت) فيما سبق على توهم زيادة " أنْ " في الخبر للضرورة ، ومن ثم تلازم التوهم مع الضرورة الشعرية .

(٢) المفعول المطلق :

استخدم سيبويه الفعل " توهم " في باب المفعول المطلق في قوله : (هذا باب ما ينتصب فيه المصدر المشبّه به على إضمار الفعل المتروك إظهاره) [٣١] ، وذلك قولك : (مررت به فإذا له صوتٌ صوتَ حمار ، ومررت به فإذا له صراخٌ صراخَ الثكلى) [٣٢] .

(وهذا شبيه في النصب لا في المعنى بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وجاعلُ الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ﴾ لأنه حين قال : جاعل الليل فقد علم القارئ أنه على معنى جعل (فصار كأنه قال : عل الليل سكناً وحمل الثاني على المعنى ، فكذلك له صوت ، فكأنه قال : فإذا هو يصوّتُ) فحمله على المعنى فنصبه ، كأنه توهم بعد قوله له صوتٌ بصوت صوت الحمار ، أو يبديه أو يخرجه صوت الحمار ، ولكنه حذف هذا لأنه صار له صوت بدلاً منه) [٣٣] .

وما مضى يتعلق بحذف عامل المصدر وجوباً إذا قصد به التشبيه في جملة مشتملة على فاعل المصدر في المعنى [٣٤] . ويقصد بالتوهم هنا التقدير .

وقريب مما سبق ما ورد في " باب لا يكون فيه إلا الرفع "[٣٥]، وذلك قوله: له يدٌ يدُ الثور ، وله رأسٌ رأسُ الحمار ، لأن هذا اسم ولا يوهّم على الرجل أنه يصنع يداً ولا رجلاً وليس بفعل [٣٦] ، فلا يوهّم بمعنى لا يتخيل أو يتمثل .

(٣) المفعول معه :

المفعول معه اسم وقع بعد واو بمعنى مع ، ويكون منصوباً ، وعامل النصب فيه لفظي ، هو الفعل أو ما يشبه الفعل ، مثل : المصدر ، واسم الفاعل ، وله شروط خاصة به توردها المظان النحوية المختلفة .

وللتوهم في هذا الباب موضع أورده سيبويه في قوله : (وزعموا أن ناساً يقولون : كيف أنت وزيداً ، وما أنت وزيداً ، وهو قليل في كلام العرب ، ولم يحملوا على " ما " ولا " كيف " ولكنهم حملوه على الفعل .

وأما أنت وشأنك ، وكل امرئ وضيعته ، وأنت أعلم وربك ، وأشباه ذلك فكله رفع لا يكون في النصب ، لأنك إنما تريد أن تخبر بالحال التي فيها المحدث عنه في حال حديثك .

وأما الاستفهام فإنهم أجازوا فيه النصب ؛ لأنهم يستعملون الفعل في ذلك الموضع كثيراً ، يقولون : ما كنت ؟ وكيف تكون ؟ إذا أرادوا معنى مع ومن ثم قالوا : أزمانَ قومي والجماعةَ ، لأنه موضع يدخل في الفعل كثيراً ، يقولون : أزمانَ كان وحين كان) [٣٧] .

فالنصب في جملة كيف أنت وزيداً ليس من باب العطف على " كيف " و " ما " ولكنه محمول على تقدير فعل هو " تكون " أو " كان " وهما يقعان كثيراً .

وكذلك الأمر مع الاستفهام ، لكون الفعل يقع كثيراً كذلك ، فالكلام يحدث وكأن الفعل موجود ، وفي هذا الموضع من التوهم مثل ما هو موجود في قول الشاعر :

ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً

عطفـاً على توهم جر " مدرك " لكثرة استعمال الباء هنا ، فإذا كان إضمار حرف الجـر ممكـناً ، فمـن باب أولى إضمار الفعل لكثرته في الاستعمال وتمكنه أكثر من الحرف .

(٤) الحـال :

وردت الأفعـال الدالة على التوهم عند سيبويه في باب الحال تحت عنوان (هـذا بـاب ما ينتصب من المصادر لأنه حال صار في المذكور) [٣٨] ، و(ذلك قولك : أما سِمَناً فسَمينٌ ، وأما علماً فعالم . وزعم الخليل رحمه الله أنه بمنزلة قولك : أنت الرجل علماً وديناً ، وأنت الرجل فهماً وأدباً . وقد يرفع هـذا في لغـة بني تميم ، والنصب في لغتها أحسـن ؛ لأنهم يتوهمون الحال ، فإن أدخلت الألف واللام رفعوا ، لأنه لا يمتـنع من أن يكون حالاً .. وقد ينصب أهل الحجاز في هذا الباب بالألف واللام ، لأنهم قـد يتوهمون في هذا الباب غير الحال ، وبنو تميم كأنهم لا يتوهمون غيره ، فمن ثم لم ينصـبوا في الألف واللام وتركوا القبح) [٣٩] . فكأن الذي توهم أهل الحجاز الباب الذي ينتصب لأنه موقوع له ، نحو قولك فعلته مخافة ذلك [٤٠] ، وذلك قولهم : أما النّبلَ فنبيلٌ ، وأما العقل فهو الرجل الكامل ، كأنه قال هو الرجل الكامل العقل والرأي ، أي للعقل والرأي ، وكأنه أجاب من قال : لِمَه ؟) [٤١] .

فإذا قلت : أما الضرب فضارب ، فهذا ينتصب على وجهين : على أن يكون الضرب مفعولاً كقولك : أما عبد الله فأنا ضارب ، ويكون نصباً على قولك : أما علماً فعالم ، كأنك قلت : أما ضرباً فضارب ، فيصير كقولك : أما ضرباً فذو ضرب) [٤٢] .

واطـرد ورود المصـدر حالاً في نحو : أما علماً فعالم يريد مهما يذكر إنسان في حال علم فالذي وصفت عالم ، كأنه منكر ما وصفه به من غير العلم [٤٣] .

ومـــن الملاحظ أن سيبويه شبه التوهم بما وقع لما كان على فاعل من الصفات ، مثل : هـــالك ، وما كان على فيعل ، مثل سيد وميت ، وما جاء على فعيل ، مثل : مريض وصفاً للفاعل لا للمفعول ، إذ توهموها وصفاً للمفعول مثل جريح وقتيل ، فهذه قيل في تكســـيرها جرحى وقتلى ، وقيل في الأخرى : هلكي ومرضى وموتى ، توهما على أنها بمعنى مفعول .

(٦) النعـــت :

أشار سيبويه إلى وقوع التوهم وحدوثه في باب النعت على غير وجه الكلام في قوله : (ومما جرى نعتاً على غير وجه الكلام هذا جحر ضب خرب ، فالوجه الرفع ، وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم ، وهو القياس ، لأن الخرب نعت للجحر والجحر رفع ، ولكـــن بعـــض العـــرب يجره ، وليس بنعت للضب ، ولكنه نعت للذي أضيف إلى الضب) [٥٠] .

ويذكر سيبويه الأسباب التي سهلت الجر توهماً فيما يلي :

أ – أن كلمة " خرب " نكرة مثل كلمة " الضب " .

ب – لأن كلمة " خرب " في موضع يقع فيه نعت الضب .

جـــ– لأن كلمة " خرب " صارت هي والضب بمنزلة اسم واحد [٥١] .

وقال الخليل رحمه الله : لا يقولون إلا هذان جحرا ضب خربان ، من قبل أن الضب واحـــد ، والجحر جحران ، وإنما يغلطون إذا كان الآخر بعدة الأول ، وكان مذكراً مثله أو مؤنثاً . وقالوا : هذه جحرة ضباب خربة ، لأن الضباب مؤنثة ، ولأن الجحرة مؤنثة والعدة واحدة فغلطوا) [٥٢] .

ويســـتفاد مـــن قول الخليل أن الجر على التبعية لا يقع إلا إذا استوى المتجاوران في التعيين والنوع والعدد ، فإن اختلفا فلا جر ولا نعت ، فهذا الاتفاق سبب من أسباب التوهم في نعت الاسم على غير ما هو له ، وهذا مبعث قول الخليل : (وإنما يغلطون

إذا كـــان الآخـــر بعدة الأول ، ولأن الجحرة مؤنثة ، والعدة واحدة ، ومن ثم فقد غلطوا . فإذا قال : هذا جحر ضب متهدّم ، ففيه من البيان أنه ليس بالضب ، مثل ما في التثنية من البيان أنه ليس بالضب) [٥٣] .

ويشبه ذلك قول العجاج :

كـــأن نســـج العنكـــبوت المـــرْمَل

عـــلى ذرى قُلامـــه المهـــدَّل

سُـــبوب كـــتَّان بـــأيدي الغُـــزّل

فالنســـج مذكر والعنكبوت أنثى [٥٤] . وقد جر المرمل لمجاورته للعنكبوت ، وهو في الحقيقة صفة للنسج . وكان الخليل لا يجيز الجر على التبعية إلا إذا استوى المتجاوران في التعريف والتنكير والتذكير والتأنيث والتثنية والجمع .

ويجوز الجر على التبعية على غير ما هو له دون رابط إن أمن اللبس ، قال ابن مالك : (وربما تبع الجر غير ما هو له دون رابط إن أمن اللبس ، كقولهم : هـــذا جحر ضب خـــرب وأمثاله ، فحق خرب أن يرتفع ، لأنه نعت " جحر " و" جحر " مرفـــوع ، لكنه جعل تابعاً لضب لمجاورته إياه مع أمن اللبس) [٥٥] .

(٧) التوكيـــد :

أورد ســـيبويه الفعل " يغلطون " وهو محمول على التوهم في المعنى خلال حديثه عن التوكـــيد المعـــنوي ، في قوله : (واعلم أن ناساً من العرب يغلطون فيقولون : إنهم أجمعون ذاهبون ، وإنك وزيد ذاهبان ، وذاك أن معناه معنى الابتداء ، فيرى أنه قال : هم ، كما قال :

ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً) [٥٦]

والحاصـــل أن القياس يقتضي القول : إنهم أجمعين ذاهبون ، على أن "أجمعين" توكيد لاسم إن الضمير ، ولعل تقدير الضمير " هم " وتوهمهم إياه على أنه مبتدأ هو الذي جعل " أجمعون " مرفوعة ، على أن " هم " المتوهم مبتدأ ، و " أجمعون " توكيد له ، و " ذاهبون " خبر " إنّ " .

ولم يـــرق لابن مالك قول سيبويه: (إن ناساً من العرب "يغلطون" إذ انتقده وعاب علـــيه اقامه للعرب للمطبوعين على العربية بمثل هذا وذلك في قوله : (وهـــذا غير مرضي منه رحمه الله ، فإن المطبوع على العربية كزهير قائل البيت) يقصد ولا سابقٍ شـــيئاً مما مضى) لو جاز غلطه في هذا لم يوثق بشيء من كلامه ، بل يجب أن يعتقد الصـــواب في كل ما نطقت به العرب المأمون حدوث لحنهم بتغير الطباع ، وسيبويه موافـــق عـــلى هـــذا ، ولـــولا ذلك ما قبل نادراً كَلدُن غدوةً ، وهذا جحر ضبٍ خربٍ) [٥٧] .

وتعقيـــباً عـــــلى كـــلام ابـــــن مالك يمكن القول : لعل سيبويه لا يقصد بقوله : "يغلطـــون" الخروج عن الصواب أو ما يقابل الصواب في القول ، بل يقصد الخروج عن القياس ، وتوهم وجود شيء كان حقه أن يوجد ، بدليل قوله (وذاك أن معناه معنى الابتداء فيرى أنه قال : " هم " مما يعني أن سيبويه مدرك واقع التركيب ، ولكن توهم القائلين ودفعهم للقول بمثل هذا ونحوه .

(٨) عطف النســـق :

عطـــف النسق ما تم بحرف من حروف العطف التي توردها المظان النحوية المختلفة ، وقد اشتمل هذا الجزء من البحث على : العطف بالجر على خبر ليس وما المنصوب ، العطـــف على جواب الطلب المقترن بالفاء ، العطف بأو على الشرط المجزوم . وبيان ذلك كما يلي :

أ - العطف بالجر على خبر ليس وما المنصوب :

ورد في كتاب سيبويه قول : (ونظير جعلهم لم آتك ولا آتيك وما أشبهه بمنزلة الاسم في النية حتى كأنهم قالوا لم يك إتيان ، إنشاد بعض العرب قول الفرزدق :

مشـــائيم ليسوا مصلحين عشيرةً ولا ناعـــبٍ إلا ببـــيْنٍ غـــرابُها

ومثل قول الفرزدق أيضاً :

وما زرت سلمى أن تكون حبيبة إليَّ ولا ديْـــنٍ بهـــا أنـــا طالـــبهْ

ومثله قول زهير :

بدا لي أني لستُ مدركَ ما مضى ولا ســـابقٍ شـــيئاً إذا كان جائياً

لمـــا كـــان الأول تستعمل فيه الباء ولا تغير المعنى ، وكانت مما يلزم الأول نووها في الحرف الآخر ، حتى كأنهم قد تكلموا بها في الأول) [٥٨] .

فهذا عطف بالجر توهماً على تقدير حرف الجر بالباء .

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر :

ما الحازم الشهم مقداماً ولا بطل إن لم يكن للهوى بالفعل غلابا [٥٩]

إذ جـــر كلمة " بطل " عطفاً على خبر " ما " المنصوب على توهم وجود حرف الجر الباء الزائدة في قوله : ما الحازم بمقدام ولا بطل .

ولم يقف الأمر على (ما) و (ليس) بل عومل بهذه الصورة المعطوف على منصوب كان المنفية ، كقول الشاعر :

ومـــا كنـــت ذا نـــيربٍ فيهم ولا مـــــنمشٍ فـــــيهم مـــــنمل

فجر منمشاً لعطفه على منصوب كان المنفية لشبهه بمنصوب ليس في صلاحيته للباء حتى كأنه قال : وما كنت بذي نيرب ولا منمشٍ . والنيرب : النميمة ، والمنمش : المفسد ذات البين ، والمنمل كذلك [٦٠] .

وهذه الصورة من العطف لا تقف عند النواسخ بل تتعداها إلى المعطوف على المنصوب باسم الفاعل ، (فقد يجر المعطوف على المنصوب باسم الفاعل كقول امرئ القيس :

فظل طهاة اللحم من بين منضج صفيفَ شواء أو قديرٍ معجّل

لأن المنصوب باسم الفاعل يجر كثيراً بإضافته إليه ، فكأنه إذا انتصب مجرور ، وجواز جر المعطوف على منصوب اسم الفاعل مشروط بالاتصال ، كاتصال منضج بالمنصوب ، فلو كان منفصلاً لم يجز الجر ، نحو أن يقال : من بين منضج بالنار صفيف شواء ، لأن الانفصال يزيد تصور الإضافة المقتضية للجر ، فلذلك لا يجوز جر المعطوف مع انفصال اسم الفاعل من معموله) [٦١] .

ويلاحظ أن كلمة " قدير " المعطوفة على كلمة " صفيف " المنصوبة بالمشتق اسم الفاعل " منضج " المنون توهماً على أنه مجرور بالإضافة .

ب – العطف على جواب الطلب المقترن بالفاء :

ذكر سيبويه تحت باب الحروف التي تنزل بمنزلة الأمر والنهي ؛ لأن فيها معنى الأمر والنهي ، قوله : (سألت الخليل عن قوله عز وجل : ﴿ فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ فقال : هذا كقول زهير :

بدا لي أن لستُ مدرك ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً

فإنمـــا جروا هذا ، لأن الأول قد يدخله الباء ، فجاءوا بالثاني ، وكأنهم قد أثبتوا في الأول الـــباء ، فكذلـــك هذا لما كان الفعل الذي قبله قد يكون جزماً ولا فاء فيـــه تكلموا بالثاني ، وكأنهم قد جزموا قبله ، فعلى هذا توهموا هذا) [٦٢] .

فســـيبويه قاس العطف على المضارع الواقع في جواب الطلب على العطف على خبر ليس المنصوب ، فكما أن خبر ليس تُوهّم فيه وجود الباء مع خلوها منها ، فقد توهم في الأول خلو المعطوف من الفاء مع وجودها .

جـــ- العطف بأو على الشرط المجزوم :

أورد سيبويه في باب " أو " قوله : سألت الخليل عن قول الأعشى :

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلـــون فإنـــا معشـــر نُـــزُلُ

فقال : الكلام هاهنا على قولك يكون كذا أو يكون كذا ، لما كان موضعها لو قـــال فـــيه أتركـــبون لم ينقض المعنى [٦٣] ، صار بمنزلة قولك : ولا ســـابقٍ شيئاً ، وتعليل الخلـــيل وتوضـــيحه قـــائم على توهم العطف على المرفوع ، كأنه قال أتركبون أو تنـــزلون ، على الاستفهام . وهو المسمى عطف التوهم [٦٤] .

ويشير سيبويه إلى أن (الإشراك على هذا التوهم بعيد كبعد "ولا سابقٍ شيئاً "، (يعني بعـــد عطف أو تنزلون على توهمهم أتركبون كبعد عطف سابق على توهم بمدرك ما مضى) [٦٥] . ألا ترى أنه لو كان هذا كهذا لكان في الفاء والواو . وإنما تُوهّم هذا فيما خالف معناه التمثيل يعني مثل هو يأتينا ويحدثنا . يقول : يدخل عليك نصب هذا عـــلى توهّم أنك تكلمت بالاسم قبله ، يعني مثل قولك : لا تأته فيشتمك ، فتمثيله على لا يكن منك إتيان فشتيمة والمعنى على غير ذلك) [٦٦] .

تلـــك كانت أبرز القضايا الصرفية والنحوية التي تتبعنا من خلالها مصطلح التوهم في كتاب سيبويه . ومنه نتبين مدى الحرص على فهم وتفسير القضايا الصرفية والنحوية .

خاتمـــة البحـــث

بعد الانتهاء من تتبع هذا المصطلح في فكر سيبويه تجدر الإشارة إلى النتائج التالية :

- مصـــطلح التوهم عند سيبويه كان يقصد به إدراك معنى من المعاني الجزئية المتعلقة بقضية من القضايا ، وأحياناً كان يقصد به القياس الخاطئ ، أو التقدير أو التمثيل أو الإعراب .
- ثمـــة بعـــض المصطلحات التي كانت تستخدم في بعض الحالات بمفهوم التوهم ، مثل : الغلط ، النية . وقد لوحظ أن مصطلح التوهم أكثرها شيوعاً واستخداماً .
- التوهم ضرب من الحمل على المعنى في النحو العربي ، وإجراؤه على غير لفظه ، وهو يمثل إحدى وسائل تخريج الكلام ، إذا جاء على غير ما يقتضيه القياس .
- يلعب المعنى دوراً بارزاً في التوهم ، ويتمثل في اتجاهين :

أحدهما : وجود اللفظ والنطق به ، مع حمل الكلام على ما يقتضيه وجود هذا اللفظ أو ذاك .

الثاني : عـــدم وجـــود اللفظ وما يترتب على ذلك من حمل الكلام على ما يقتضيه غيابه .

هوامش البحث

(١) اللسان – وهم ٤٩٤٣/٦ والبيت في ديوان زهير ص ٧٥

(٢) المرزوقي – شرح ديوان الحماسة جـ ٢/٩٨٢/٢

(٣) اللسان – وهم ٤٩٣٥/٦

(٤) ديوان النابغة ص ٣٠

(٥) اللسان – وهم ٤٩٣٥/٦

(٦) ابن فارس – الصاحبي ٣٧٧ ، وانظر : السيوطي – المزهر ٣٣٦/١

(٧) الجرجاني – التعريفات ١٠١ ؛ وانظر : أبو البقاء – الكليات ٣١٤

(٨) جميل صليبا – المعجم الفلسفي ٥٨٢

(٩) يوسف الصديق – المفاهيم والألفاظ في الفلسفة الحديثة ٩٨

(١٠) أبو البقاء – الكليات ٣١٦

(١١) د . محمد زكي العشماوي – فلسفة الجمال في الفكر المعاصر ٨٦

(١٢) ابن هشام – مغني اللبيب ٦٧٨/١

(١٣) المصدر السابق – ٤٧٦/٢ – ٤٧٧

(١٤) راجع : سيبويه – الكتاب ١٥٥/٢ ، ٤٦٢/٣ ، ٣٥٦/٤

(١٥) المصدر السابق ١٥٥/٢

(١٦) ابن هشام – مغني اللبيب ٤٧٨/٢

(١٧) راجع : سيبويه – الكتاب

(١٨) راجع : سيبويه – الكتاب ٣٤٦/٤

(١٩) المصدر السابق ٣٤٧/٤

(٢٠) سيبويه – الكتاب ٣٦٢

(٢١) راجع : النص – شرح الشافية ٢٠٩/١ وابن هشام – أوضح المسالك ٢٩٥/٤ .

(٢٢) الأشموني – شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني ٥٠٧/٢

(٢٣) سيبويه – الكتاب ١٦٠/٤

(٢٤) المصدر السابق ١٦٠/٤

(٢٥) المصدر السابق ٣٥٦/٤

(٢٦) سيبويه – الكتاب ٣٥٦/٤

(٢٧) المصدر السابق ٦٠١/٣

(٢٨) المصدر السابق ٦٠٥/٣

(٢٩) المصدر السابق ٣٠٣/١

(٣٠) سيبويه – الكتاب ٣٠٦/١ – ٣٠٧

(٣١) المصدر السابق ٣٥٥/١

(٣٢) المصدر السابق ٣٥٥/١

(٣٣) سيبويه – الكتاب ٣٥٦/١

(٣٤) ابن عقيل – شرح ابن عقيل ٥١٨/١

(٣٥) سيبويه – الكتاب ٣٦٦/١

(٣٦) المصدر السابق ٣٦٦/١

(٣٧) سيبويه – الكتاب ٣٠٣/١ ، ٣٠٥ – ٣٠٦

(٣٨) سيبويه – الكتاب ٣٨٤/١ ، وقد علق السيرافي على ذلك بقوله : هذا الباب فيه صعوبة ، ونقل كلام النحويين من البصريين والكوفيين ، وكذلك قال الزجاج : هذا باب لم يفهمه إلا الخليل وسيبويه (سيبويه – الكتاب ٣٨٤/١ – هامش ٣) .

(٣٩) سيبويه – الكتاب ٣٨٣/١

(٤٠) السيرافي ما ملخصه : محصل ما ذهب إليه سيبويه في هذا الباب أن الحجازيين ينصبوه على المفعول لأجله ، لأنهم ينصبون المعرف كما ينصبون المنكر ، والمفعول يكون نكرة ومعرفة ، وأما بنو تميم فلم ينصبوا المعرف في هذا الباب ، بل رفعوه على

الابـــتداء ، فـــدل عـــلى أن نصـــبه عندهم على الحال لأنه هو الذي يلزم التنكير (هامش ١ – سيبويه – الكتاب ٣٨٥/١) .

(٤١) سيبويه – الكتاب ٣٨٥/١ – ٣٨٦

(٤٢) المصدر السابق ٣٨٥/١

(٤٣) ابن مالك – شرح التسهيل ٣٢٩/٢

(٤٤) المصدر السابق ٣٢٩/٢

(٤٥) ابن مالك – شرح التسهيل ٣٢٩/٢ – ٣٣٠

(٤٦) المصدر السابق ٣٣٠/٢

(٤٧) سيبويه – الكتاب ٣٦/٢

(٤٨) المصدر السابق ٤١/٢ – ٤٢

(٤٩) المصدر السابق ٤٢/٢

(٥٠) سيبويه – الكتاب ٤٣٦/١

(٥١) المصدر السابق ٤٣٦/١

(٥٢) المصدر السابق ٤٣٧/١

(٥٣) سيبويه – الكتاب ٤٣٧/١

(٥٤) المصدر السابق ٤٣٧/١

(٥٥) ابن مالك – شرح التسهيل ٣٠٨/٣

(٥٦) سيبويه – الكتاب ١٥٥/٢

(٥٧) ابن مالك – شرح التسهيل ٥٢/٢

(٥٨) سيبويه – الكتاب ٢٨/٣ ، ٢٩

(٥٩) ابن مالك – شرح التسهيل ٣٨٦/١

(٦٠) ابن مالك – شرح التسهيل ٣٨٦/١

(٦١) المصدر السابق ٣٨٦/١

(٦٢) سيبويه – الكتاب ٣/١٠٠ – ١٠١

(٦٣) مذهب يونس الرفع على الابتداء ، كأنه قال : أو أنتم نازلون ، وعلى هذا الوجه فُسّر الرفع في الآية ، كأنه قال : أو هو يرسل رسولاً .. وقول يونس أسهل ، ومذهب الخليل الاستفهام ، لأن معناه أتركبون فذاك عادتنا ، أو تنزلون في معظم الحرب فنحن معروفون بذلك . وهذا مذهب الخليل . وحمله يونس على القطع ، والتقدير عنده ، أو أنتم تنزلون ، قال الشنتمري : وهذا أسهل في اللفظ ، والأول أصح في المعنى والنظم (سيبويه – الكتاب ٣/٥١ هامش رقم ١) .

(٦٤) المصدر السابق ٣/٥١

(٦٥) سيبويه – الكتاب ٣/٥١ هامش رقم ٤

(٦٦) المصدر السابق ٣/٥١ – ٥٢

المصـــادر والمراجـــع

- أوضح المسالك ، لابن هشام – أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف ، ت ٧٦١هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، صيدا ، بيروت .
- الـــتعريفـــات ، لعـــلي بن محمد بن علي الجرجاني ٧٤٠ – ٨١٦هـ ، تحقيق د . عبد الرحمن عميرة – عالم الكتب بيروت – لبنان – ط١/١٩٨٧
- ديوان زهير بن أبي سلمى ، دار صادر ، بيروت (د . ت)
- ديـــوان الـــنابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ط٢/ ١٩٨٥
- شـــرح الأشموني على ألفية بن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني ، لنور الدين أبو الحسن عـــلي بـــن محمد بن عيسى (٨٣٨ – ٩٠٠) دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، مصر (د . ت)
- شرح التســـهيل ، لابن مالك ، جمال الدين محمد بن عبد الله الأندلسي ٦٠٠ – ٦٧٣ هـ ، تحقيق د . عبد الرحمن السيد ، ود . محمد بدوي المختون ، دار هجر ، القاهرة ، ط١/١٩٩٠
- شـــرح ابن عقيـــل ، لبهاء الدين عبد الله بن عقيل ٦٩٨ – ٧٦٩هـ ، بعنايـــة محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٣
- الصـــاحبي في فقه اللغة ، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريات ٣٩٥ ، تحقيق السيد أحمد صقر – عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧٧
- فلســـفة الجمال ، د . محمد زكي العشماوي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠
- الكتاب ، لسيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبرت ١٨٠هـ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة والخانجي ، القاهرة ط٢/٧٧ ، ٧٩ ، ١٩٨٢
- الكليات ، لأبي البقاء ، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ت ١٠٩٤هـ = ١٦٨٣م ، بعناية د . عدنان درويش ، محمد المصري ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٢/١٩٩٣

- لسان العرب ، لابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل ٦٣٠ – ٧١١هـ ، دار المعارف – مصر (د . ت)
- المزهـــر ، للسيوطي ، عبد الرحمن جلال الدين ٩١١هـ ، بعناية محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، دار الجيل ، بيروت (د . ت)
- المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٢
- مغني اللبيـــب ، لابن هشـــام ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف ت ٧٦١هـ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة صبيح ، القاهرة (د . ت)
- المفاهـــيم والألفـــاظ في الفلســـفة الحديثة ، يوسف الصديق ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ط٢/١٩٨٠